فجر الإسلام في غرب إفريقية

عبد الصمد عبد الله*

أطلقت كلمة إفريقية (Africa) قديماً على الإقليم الذي يقابل الشمال الشرقي من الجمهورية التونسية حاليّاً. وكان معروفاً باسم "ولاية أفريكا القنصلية لروما"، وهو الذي عُرِّب فيما بعد إلى "إفريقية"، أطلقه العرب في بداية الأمر على كل ما يلي إقليم طرابلس غرباً، فتحدد مدلول هذا اللفظ "إفريقية" مقتصراً على ما يلي طرابلس غرباً حتى بجاية.

ثم أصبح يعني إقليم تونس،[1] وكان اللاتينيون في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد قد أطلقوا اسم "أفريكا" على القسم الذي خضع لنفوذ الفنيقيين من تونس الشمالية. وهو الجزء الذي كانت تقطنه قبائل "أفري"، والمقصود به الجزء الذي جعلته روما ولاية لها بعد تدمير قرطاجنة سنة ١٤٦ق.م.[2] ويرجع بعض الباحثين كلمة "أفريكا" إلى أصل يوناني وأن "أفريكوس" مشتقة من اللفظ اليوناني "أفريكا"، وهي جملة مكونة من حرف "Y" ويفيد النفي، وكلمة "أفريكا" وتعنى "البرد"، أي البلاد التي لا برد فيها أو البلاد الحارة،[3] ثم أصبحت التسمية تشمل بقية القارة المعروفة الآن بالقارة الإفريقية.

أما غربي إفريقية الذي هو هدفنا في هذه الدراسة، فهو جزء مما كان يعرف قديماً

---

* أستاذ البلاغة والأدب المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

١ القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ج٥، ص٩٩-١٠٩، وكذا Encyclopedia International p. 114.

2 *Encyclopedia Birtanica*, p. 128 and *Every man's Encyclopedia*, p. 118.

3 *Short Etymological Dictionary & Modern English original*, p. 8, and: *Altin dictionary*, p. 69.

عند المؤرخين المسلمين ببلاد السودان، إذ أطلقوا هذه التسمية على بلاد جنوبي الصحراء الكبرى، كما أطلقوا على منطقة شمالي إفريقية والصحراء "بلاد البيضان"، وكانوا يقصدون ببلاد السودان المنطقة العريضة جنوبي الصحراء الممتدة من المحيط الأطلسي في الغرب إلى هضبة الحبشة في الشرق، ومن الصحراء في الشمال إلى الغابات الاستوائية في الجنوب.

والعرب أول من أطلق على هذه البلاد "بلاد السودان" مستوحين هذه التسمية من لون بشرة السكان.

وقد قسم بعض الباحثين هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

الأول: السودان الغربي ويشمل حوض السنغال وجامبيا وبوركينافاسو[٤] والنيجر الأوسط.

الثاني: السودان الأوسط ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد، أي أنه يمتد شرقي نهر النيجر حتى الحدود الغربية للسودان الشرقي.

الثالث: السودان الشرقي، وهو المعروف الآن بسودان وادي النيل، ويشمل مناطق النيل وروافده جنوبي بلاد النوبة.. وكان هذا القسم يعرف عند العرب بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين باسم "بلاد الزنج"، وهي التسمية الغالبة عليه في تلك المرحلة إلاّ أن كلمة السودان كانت تشمله أيضاً.[٥]

أما غربي إفريقية، فيشمل السودان الغربي والأوسط، أي المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، وتحدها من الجنوب المناطق الاستوائية، ومن الشمال المناطق الجنوبية للصحراء، وتقع بين خطي عرض تسع وسبع عشرة درجة شمال خط الاستواء.

وقد كانت تربط بين شمالي إفريقية وغربيها علاقات قديمة تشهد لها أحداث التاريخ.. فقد وجدت عدة طرق للقوافل التجارية بين شمالي إفريقية إلى غربيها عبر الصحراء الكبرى، وكانت بعض هذه الطرق من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر متجهة إلى الجنوب فتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز التجارية الرئيسة في غربي إفريقية مثل: "غانة" القديمة وتمبكتو وولايات الهوسا وكانم وبرنو وغيرها .. وقد تتصل بالصحراء وتتفرع وتتجه إلى جهات مختلفة.

---

٤ فولتا العليا سابقاً.

٥ عبد القادر زائدة، **مملكة السنغال في العهد الأسقيين** (الجزائر: طبعة الشرق الوطنية للنشر والتوزيع)، ص١٥.

فالقافلة التي تبدأ من القاهرة تتجه أولاً صوب المغرب إلى أوجلة ومرزوق، وهناك تتصل بقافلة أخرى من طرابلس فيتجه بعضها نحو الجنوب إلى "كانم" بواسطة بلما، في حين تستمر بعض القوافل حتى تصل ولايات الهوسا عن طريق أهير. ٦

وهناك ثلاثة طرق رئيسة دخل منها الإسلام إلى غربي إفريقية :

الأول: يبدأ من طرابلس ماراً بفزان وكوار وينتهي في برنو داخل نيجيريا .

الثاني: يبدأ من تونس وينتهي في كانو.

الثالث: يبدأ من تافللات في المغرب ويتفرع فرعين: أحدهما يمر بسلجماسة وتفازة، والآخر بتوات وأودغست، ثم يجتمعان في تمكتو، ومنها شرقاً إلى "كانو".

وهذه الطرق تدل على العلاقات التجارية القديمة التي كانت تربط بين شمالي إفريقية وغربيها، تلك العلاقات التي وصفها الرحالة "بارت" بأنها أقدم مما يتصور٧.

ويذكر بوفيل أربعة طرق أخرى رئيسة كان تربط بين الشمال والجنوب:

الأول: من سلجماسة إلى ولات ثم إلى بلاد السنغال وأعالي نهر النّيجر.

الثاني: من غدامس إلى بلاد الهوسا الغنية عن طريق غاط وأهير .

الثالث: من طرابلس إلى برنو ونهر تشاد مارة بفزان وكوار .

الرابع: من قورينة (Cyrenica) إلى وادي عن طريق كفره.٨

وقد تحدث مارفين هسكيت عن هذه العلاقات التجارية القديمة بين الشمال والجنوب مرجعاً تاريخها التقريبي إلى سنة ١٠٠٠ ق.م. إذ وجدت منذ ذلك العهد عدة طرق تجارية كانت تصل المغرب والصحراء الغربية .

أما الطريق الأول فيمتد من المغرب إلى الصحراء الغربية عبر موريتانيا الحالية إلى نهر السنغال، والفرع الشرقي لهذا الطريق يؤدي إلى "كمبي صالح" عاصمة إمبراطورية "غانا القديمة" ويرجح أن يكون هو الطريق الذي استعمل في الغزوات العربية "الفتوحات الإسلامية" التي بدأت من جنوبي المغرب في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي متوغلة في الصحراء وراجعة بكمية كبيرة من الذهب، وأن هذا الطريق قل استعماله ذات يوم ثم أعيد استخدامه في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر

---

٦ أحمد شيخو غلادنشبي، **حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا**، رسالة دكتوراه، ص٢،.

٧ على أبو بكر، **الثقافة العربية في نيجيريا** (بيروت: طبعة مؤسسة عبد الحفيظ البساط)، ص٢.

٨ **حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا**، ص٣.

الميلادي عندما أنشأ البرتغاليون محطتهم التجارية في ودان. . وظل هذا الطريق مستعملاً حتى نهاية القرن العاشر الهجري / الثالث عشر الميلادي، وعندما فتح المسلمون شمالي إفريقية، وربما في العهد الروماني، كان الطريق الثاني من طرابلس إلى "فزان"، قد امتد من جنوب غربي فزان إلى "تدماكت" ويمكن أن يكون قد امتد حتى منحنى النيجر.. وكانت وسائل التنقلات المعتمدة في ذلك الوقت الثور والخيل قبل دخول الجمل بلاد الصحراء في القرن الثاني الميلادي. هذا ما يؤكده معظم المؤرخين في شأن امتداد هذا الطريق داخل الصحراء..

أما الطريق الثالث للصحراء المار "بغاو" وجنوب غربي أهير إلى واحات خرجة، فقد كان مستعملا قبل دخول الإسلام في شمال إفريقية، وإن كانت معرفة المدى الطويل له قبل الإسلام غير مؤكدة .. وكان مهجورا خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي لخطورته .

ومهما يكن من أمر، فإن اتصالات شمالي إفريقية وغربيها قد أعيدت ابتداءً من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي .. ويبدو أن الذهاب إلى الشمال "فزان" أصبح ضرورياً قبل اللحاق بالطريق المؤدي إلى مصر.. وفي القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، فتح الطريق المسمى ب"الطريق السوداني" من وادي النيل الأعلى عبر فنج ودافور ووادي وامتد حتى برنو، كما وجد طريق قديم آخر في الشرق من طرابلس إلى كانم عبر فزان وواحة كوار .. ويؤكد "مرتين" أن هذا الطريق كان مستعملاً خلال العهد القرطاجني في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد كان ممتداً إلى بحيرة تشاد في وقت ما قبل القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) ويمكن أيضاً أن يكون قد أغلق لفترة مؤقتة خلال الفتح الإسلامي لشمال إفريقية "الفتح الإسلامي" في القرن الأول الهجري / القرن السابع الميلادي، غير أنه سرعان ما فتح من جديد واستمر في الاستعمال مع توقفات آنية حتى القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي.[9]

ومن مجموع ما سبق، يتجلى مدى قدم العلاقات التجارية بين شمالي إفريقية وغربيها، ومنها نتعرف على الخطوات الأولى لدخول الإسلام في غربي إفريقية الذي هو هدفنا من هذا التمهيد في هذه الدراسة.

---

9 M. Hiskett. *The Development of Islam in West Africa*, p. 322.

لقد كان قيام حركة المرابطين ثم توغلهم في الصحراء تحت قيادة أبي بكر عمر اللمتوني[١٠] حدثاً شديد الأهمية جعل الإسلام تحت الأضواء في تاريخ غربي إفريقية، إذ لم يكن المرابطون أول من بشر بالإسلام في هذه البلاد، فقد سبقهم لذلك عدة محاولات هيأت للإسلام أن يدلف بخطى بطيئة في غربي هذه القارة في مدة لا تقل عن مائتي عام .

أما متى تسرب الإسلام إلى غرب إفريقية؟ ظلت هذه القضية مجهولة حتى ألقى عليها بعض الضوء الفلكي العربي الفزاري[١١] في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، الذي عاش فترة ما بين ١٣٢-١٨٢هـ/ ٧٥٠-٧٩٩م، وهذا ما ذكر الدولة السودانية "غانة" بوصفها مصدراً للذهب وأشار إلى أن التجار المسلمين كانوا ضمن أولئك الذين كانوا على اتصال مبكر بداخل السودان في بداية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، أو بُعَيد ذلك.. ويُعدّ الفزاري أول كاتب عربي مسلم أشار إلى ذهب السودان وكذلك ألقى الضوء على هذه الحقيقة الجغرافي العربي المسلم ابن الفقيه المتوفى ٣٦٥هـ/٩٧٦م،[١٢] حيث تحدث عن طرق القوافل التجارية عبر الصحراء من غانة إلى مصر عن طريق "غاو" مدينة القوافل في منحنى النيجر.. وقد ظل هذا الطريق مهجوراً من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، ولكنه كان مستعملاً لمدة طويلة قبل هذا الهجران، وربما قبل فتح المسلمين لمصر، فمن الجائز إذاً أن يكون ثمة تأثير إسلامي قادم من مصر إلى السودان الغربي منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، والذي ينبغي أن نلاحظه هنا أنه ليس هنالك دليل قاطع على أن هذا التأثير في القرن الأول الهجري كان ثابتاً. ولكن هناك احتمالات لحصوله في هذا الوقت المبكر. فمعلومات الجغرافي المسلم المهلبي[١٣] المتوفى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، تشير إلى أنه كان لمدينة (غاو) ملك مسلم وكان فيها مسجد في عهده، تؤكد هذا الاحتمال إذ لا يعقل أن هذا كله قد تم في ليلة واحدة، وكذلك ما ذكره البكري[١٤] من وجود حي إسلامي في (غاو) وأن ملك هذه المدينة كان

---

١٠ هو أبو بكر بن عمر اللمتوني أحد زعماء المرابطين توفى سنة ١٠٨٨هـ.

١١ هو إبراهيم بن حبيب بن سمراء أبو عبد الله الفزاري وهو الذي يقول فيه جعفر بن يحيى: لم ير أبدع في فنه من الكسائي في النحو والأصمعي في الشعر والفزاري في النجوم (ياقوت، **معجم الأدباء**، ج١٧، ص١١٩-١٢٠.

١٢ هو أحمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني ويعرف بابن الفقيه (أبو عبد الله) أديب عالم بتقويم البلدان ومن تصانيفه (كتاب البلدان) **معجم المؤلفين**، ج٢، ص٨.

١٣ هو حسين بن أحمد المهلبي له كتاب (المسالك والممالك) المشهور بالعزيزي ألفه للعزيز بالله الفاطمي صاحب مصر ونسبه إلى اسمه، **معجم المؤلفين**، ج٣، ص٣١٣.

١٤ هو أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري ولد سنة ٤٣٢ وتوفي ٤٨٧هـ ومن تصانيفه كتاب (المسالك والممالك) وكتاب (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب).

مسلما..[١٥] وتلك حقيقة أكدها المؤرخ الإفريقي السوداني أحمد بابا التمبكي، وقد ذكر أنه كان يوجد اثنا عشر مسجداً في مدينة (غانة) (كومبي صالح) حوالي عام ٦٠ هـ/ ٦٧٩م، وأن إمبراطورية أودغست الإسلامية وهي التي كونها (السوننك) إحدى فروع (الماندنجو) قد قامت بدور كبير في نشر الإسلام منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، كما ذكر ابن حوقل[١٦] أن ملك أودغست يتبوتان، كان شديد الحماس في نشر الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين من ناحية الجنوب.[١٧]

وكان للفتح الإسلامي لبلاد المغرب أثره الكبير في دفع المسلمين شمالاً حتى الأندلس وفرنسا وجنوباً حتى بلاد السودان. ورووا أن حملة إسلامية في عام ١٠٢هـ/ ٧٢٠م، توجهت إلى السنغال وعادت بكميات كبيرة من الذهب وكانت أصلاً موجهة إلى مطاردة البربر.[١٨]

كما ينقل مرفين هسكيت عن ابن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م، أن الحملة قد نفذت في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، من جنوبي المغرب إلى داخل السودان وقد قدر لها النصر المظفر، وأخذ كمية كبيرة من الذهب ويبدو أنه خلال هذه الحملة أسر المغيرون الجواري من زناتة، ورجعوا بهن إلى بلادهم.[١٩]

ويروي ابن خلدون عن حملة عقبة بن عامر بن عبد قيس إلى السودان قائلاً: (فقد فتح عقبة بن عامر بن عبد قيس باسم عمر بن العاص مدينة غدامس التي كانت بوابة النيجر الشرقية سنة ٦٣هـ/ ٦٦٣م. وفي السنة التالية افتتح ودّان وكوار في السودان وأثخن في تلك النواحي وكان له جهاد وفتوح)[٢٠] ويذكر ابن عذاري المراكشي[٢١] أن عقبة انحدر في حملته الثانية إلى السودان من بلاد المغرب ووصل إلى غانة عن طريق ودّان وبنى مساجد فيها.

واعتماداً على المقارنة بين المصادر يتبين أن عقبة قام بحملتين إلى السودان إحداهما من

---

15 M. Hiskitt. *The Development of Islam in West Africa*, p. 19.

١٦ هو محمد بن علي بن حوقل المصيبي البغدادي الموصلي (أبوالقاسم) رحالة جغرافي . توفي بعد سنة ٣٦٧هـ ومن آثاره (المسالك والممالك) **معجم المؤلفين**، ج١١، ص٥.

١٧ إبراهيم علي طرخان، **دولة مالي الإسلامية** (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ص٤٧.

١٨ المصدر نفسه، ص٤٨.

19 M. Hiskett. *The Development of Islam in West Africa*, p. 19.

٢٠ محمد الغربي، **بداية حكم المغربي في السودان الغربي** (الكويت: طبعة مؤسسة الفليح للطباعة والنشر)، ص٣٢.

٢١ **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تحقيق كولا وبروفينصال، ج١، ص٢٧.

تونس والثانية من المغرب. ولا نجدُ في أي مصدر أخبار قتال أو حصار في هاتين الحملتين معاً، مما يدل على استجابة الأفارقة لدعوة الدين الجديد عن طواعية واقتناع، وهو ما علله بعض الباحثين بقوله: ونحن نرجح أن وجود قبائل بربرية وفيرة ومنتشرة في الصحراء والسودان فضلاً عن خصائص الدين الجديد وروحه التحريريّة مما خلق جوّاً مناسباً لوصول الفاتح العربي إلى أهدافه الروحية. والثابت أن حملة عقبة أسهمت في هداية أغلب قبائل البربر وبعض قبائل غانة إلى الدين الجديد لكنّها فتّحت أعين حكام شمال إفريقية على إمكانات السودان،[٢٢] كما يذكر في معرض حديثه عن المدن ذات الأهمية التجارية في إمبراطورية غانة مدينة "هنشين" التي ضمت جالية عربية هي بقايا الجنود الذين سبق لخلفاء بني أمية في الأندلس أن وجهوهم إلى السودان فتخلفوا وتزوجوا سودانيات[٢٣] غير أنه لا يذكر مصدره القديم في هذه الرواية، وهي لا تتفق ورواية البكري التي يقول فيها "وبلاد غانة قوم يسمون بالهمنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام وهم على دين أهل غانة إلاّ أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم فهم بيض حسان الوجوه".[٢٤]

ويتضح لنا اختلاف الروايتين القديمة والحديثة ففي حين تنفي الرواية القديمة المصاهرة والمناسبة بينهم وبين السودانيين وإن تحولوا إلى دينهم يثبت الباحث الحديث المصاهرة ويتوقف عن ذكر أحوالهم الدينية، ونحن لا نستطيع أن نرجح رؤية الدارس الحديث وإن كانت أقرب إلى المنطق، لأنه لم يزودنا بمصدر قديم نعتمد عليه. وعلى أي حال، فإن كثيراً من المراجع الغربية تحدثت أيضاً عن توغل جيش عقبة بن نافع في إفريقية الغربية واحتلاله بلاد التكرور وغانة، وإن أبدى بعضهم تحفظه وعدم ارتياحه إزاء الروايات الناطقة بذلك.[٢٥]

ويصف البكري غانة قائلا: "ومدينة غانا" مدينتان سهليتان، إحداهما المدينة الإسلامية، التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً ولها الأئمة والمؤذنون وفيها فقهاء وحملة العلم وحواليها آبار عذبة وعليها يعتملون

---

٢٢ **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، ص٣٢.

٢٣ المصدر نفسه، ص٣٥.

٢٤ دي سلان، **مغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب البكري** (الجزائر)، ص١٧٩.

٢٥ مثل الرحالة الإنجليزي بارث في كت *Travels in central Africa* vol.IV p. 80.

الخضروات..[٢٦] كما ذكر القلقشندي إسلام أهل غانة بقوله: "وكان أهلها قد أسلموا في أول الفتح".[٢٧]

ومجمل القول أن الأدلة على دخول الإسلام وانتشاره في السودان الغربي خلال هذه الفترة المبكرة أي من سنة ٢٦هـ/ ٦٤٧م، وحتى سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، التي كانت نقطة تحول إسلامي أصبحت واضحة للعيان .. كانت هذه الأدلة تعتمد أولاً على الروايات الشفوية المتواترة عن التجار المسلمين والرحل الذين كانوا يجوبون تلك المناطق للتجارة أو الإطلاع، الأمر الذي لا يترك مجالاً للشك أمام الباحث للاعتقاد بأن التأثير الإسلامي في السودان الغربي قد بدأ بعيد انتصار المسلمين واستيلائهم على مصر .. وإن كان لا يمكن تقدير مدى هذا التأثير.

وفي وصف البكري لمدينة غانة والمساجد الموجودة فيها، وكذا تأكيد مؤرخ بلاط صنغاي أحمد بابا التمبكتي ما يرشح هذه الحقيقة من أن الإسلام دخل هذه المنطقة منذ فجر تاريخه. إذ لا يعقل أن تكون تلك المدينة الإسلامية التي تضم اثنىعشر مسجداً في تلك الفترة المبكرة قد ظهرت إلى الوجود، وقامت على ذلك الشكل المتطور، وشيّدت فيها المساجد الاثنى عشر بين عشية وضحاها. أضف إلى ذلك أنها كانت إبّان تلك الفترة المبكرة موطناً لعدد كبير من فقهاء المسلمين وعلمائهم . كما كانت في الوقت نفسه كعبة علم يقصدها طلبة العلم، وينسلون إليها من كل حدب وصوب.

على أن الفضل في ازدياد انتشار الإسلام في السودان الغربي يرجع إلى الجهود المضنية التي بذلتها الدول والممالك الإسلاميّة التي قامت في تلك المنطقة، ولعل أول مملكة إسلاميّة يسجل التاريخ إسهامها في هذا المضمار هي مملكة صنهاجة الجنوب أو اللثام.. فقد اتحدت هذه القبيلة مع قبائل لمتونة وجدالة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، للعمل على تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء فيما بين أقصى الشمال حيث تنزل القبيلة ولاتة، وأقصى الجنوب حيث تقع مملكة غانة.. إلاّ أن هذا التحالف لم يدم طويلاً إذ وهنت أواصره فتفرقت كلمة القبائل البربريّة في حين كانت الفرصة مهيأة أمام مملكة غانة القديمة للازدهار والسيطرة على بعض أجزاء الصحراء التي تؤمها قوافل العرب والبربر.. فلما دخلت صنهاجة في نعمة الإسلام في القرن الرابع

---

٢٦ **المغرب البكري**، ص١٧٤-١٧٥.

٢٧ صبح الأعشى، ج٥، ص٢٨٤.

الهجري/ العاشر الميلادي، تسرب الدين الحنيف عبر الصحراء وعمّ المراكز التجاريّة الموجودة هناك، واتسعت مدينة "أود غست" التي كانت المركز الأمامي لتجارة غانة على حافتها الشمالية بالطابع الإسلامي. وتحت لواء هذا الدين الذي يدعو إلى الاعتصام بحبل الله استطاعت قبائل صنهاجة أن تكوّن تحالفاً جديداً تزعمته لمتونة بفضل الجهود التي بذلها الزعيم اللمتوني "تبولتان بن تكلان" الذي شرح الله صدره للإسلام .. وكان الهدف من هذا التحالف هذه المرة هو الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام في السودان الغربي..[28]

ونظراً لأهمية مملكة غانة السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة رأى الحلف أن يوجه سهامه إليها، وخاصة أنها كانت أقرب مملكة وثنية إليهم، أضف إلى ذلك أن الضعف بدأ يدب في عظام هذه المملكة السودانيّة الفتية بعد بلوغها أوج عزها وقوتها الاقتصادية والعسكريّة، وبالقضاء على هذه المملكة العظيمة التي وصفها ابن خلدون بقوله: "كانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك"[29] يصبح الطريق ممهداً لفتح الممالك السودانية الأخرى ليسرى الإسلام بين قبائلها الوثنيين.. فجهزت صنهاجة جيشاً جراراً لغزو المملكة فتوجه الجيش صوب مدينة "أودغست" عاصمة غانة، وما أن سمع ملك غانة خبر الجيش الصنهاجي حتى جهز جيشاً مماثلاً لقتاله دفاعاً عن مدينته الحيوية تجاريّاً، والتي تمثل مصدراً اقتصاديّاً مهماً لا يمكن للمملكة الاستغناء عنه.. فتقابل الجيشان في معركة أسفرت عن انتصار الجيش الصنهاجي.. ولم يكن لينتصر على غانة مستولياً على مدينة أود غست لولا ما وقع لغانة من سوء حظ، إذ أغار عليها شعب "صوصو" الذي تقع دياره إلى الجنوب من ديار "غانة"، فطعنها من الخلف طعنة غير متوقعة، فكان على المملكة أن تحارب عدوين شرسين في آن واحدٍ.. فقد أغار عليها شعب صوصو من الجنوب في الوقت الذي أغار عليها الملثمون من الشمال،[30] فسقطت مدينة أودغست أمام الملثمين بفضل ما قدمه شعب "صوصو" من دعم لهم إما ميلاً إلى الإسلام وإما كراهية لغانة نظراً لسيطرتها على الممالك السودانية الأخرى أو على مدينة أودغست التي تمثل مركزاً تجارياً مهماً تمرُّ به صادرات إفريقية الغربية ووارداتها عبر الصحراء الكبرى.. واتخذت صنهاجة مدينة

---

٢٨ **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص١٩.

٢٩ ابن خلدون، **العبر** (طبعة دار الكتاب اللبناني)، ج٦، ص٤١٢.

٣٠ **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٢٠.

أودغست عاصمة لمملكتهم، ومنها أخذوا ينشرون الإسلام في المنطقة الواقعة شمالي نهر النيجر. ووصف ابن خلدون هذه المملكة بأنها كانت مسيرة شهرين في مثلها. كما وصف ملكها "تبولتان" بأنه كان يركب في مائة ألف نجيب.[٣١]

وبعد وفاة الزعيم اللمتوني استمر الملك في أعقابه حتى عام ٣٠٦هـ حين تبدد شمل الحلف وتفرقت قبائل البربر.[٣٢] وانتهزت غانة فرصة هذا التفرق لبسط نفوذها من جديد على أودغست، إلا أنها لم تقدر على استرداد جميع أملاكها السابقة، بعد أن استقرت قبائل الملثمين فيها فاكتفت بالسيطرة على المدينة التجارية المهمة، ولا شك أن ذلك يكفل لها التحكم في طريق التجارة بين المغرب والسودان، وهو ما يدر عليها أرباحاً طائلة وذلك هو المبتغى.

و لم يدم عامل الفرقة بين الملثمين طويلاً، فقد استطاعت لمتونة بفضل جهود الأمير بروتان وبسنو أن تلم شعث الملثمين مرة أخرى للهجوم على أودغست لتقصى عنها سلطة غانة وتحولها إلى عاصمة لها مرة أخرى، وتم لها ذلك عام ٣٥٠هـ.

غير أن لهيب الصراع ظل يتطاير شرره بين غانة وبين الملثمين فما كان لغانة أن تهدأ ثائرتها حتى تسترد مدينة أودغست التي تعدّ قضية استردادها قضية حياة أو موت، وما لبثت أن استردت المدينة مرة أخرى وتفرقت قبائل الملثمين.

وهكذا ظلت مدينة أودغست تحت سيطرة غانة حتى استولى عليها المرابطون في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، فردوها إلى الملثمين.

فقد قدر ليحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة جدالة أن يؤدى فريضة الحج مع بعض الصنهاجيين عام ٤٥٦هـ/ ١٠٣٥م. وإثر رحلته تلك، التي أراد من ورائها أن يستنير ويستزيد من تحصيل العلم، بعد أن ضاق ذرعاً بما يعيش فيه قومه من الجهالة، وسوء فهم مبادئ الإسلام، عهد بأمور القبيلة إلى ابنه وأخذ يتجّول في بلاد المغرب طلباً للمعرفة، حيث وقف على أصول الإسلام القويمة، فعقد العزم على أن ينشرها بين الملثمين. وبعد عودته من رحلة الحجّ أدرك أنه لا يستطيع مباشرة هذه المهمة الشاقة بمفرده لانشغاله بأمور القبيلة.

ومن هنا رأى ضرورة البحث عن فقيه يعلم قومه الإسلام ليخلصهم من

---

٣١ العبر، ج٦، ص٣٧٢.

٣٢ العبر، ج٦، ص٣٧٢.

الاعتقادات الخاطئة، فتوجه صوب القيروان المركز الإسلامي العام. حيث شَعَرَ بالبون الشاسع بين البيئتين بيئة المغرب الأقصى الزاخرة بالحياة العقلية الرفيعة وبيئة الصحراء التي تنغمس في الجهل فاتصل بشيخ المالكية في القيروان أبي عمران الفاسي ملتمساً منه انتداب تلميذ له يرجعون إليه في نوازلهم وقضاياهم الدينية.. وحرصاً من الشيخ على إيصال الخير إليهم وجههم إلى تلميذه "وجاج بن زلو اللمطي" وانتدب لهم هذا الأخير تلميذه الفقيه الورع المجاهد المقدام "عبد الله بين ياسين بن مكو الجزولي" فاستجاب لهذه الدعوة مكرّساً جهده لهداية هؤلاء الناس يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين.[٣٣] إلاّ أن طابع التشديد الذي انطبع به منهج عبد الله بن ياسين قد نَفّر القوم عنه، فقرر أن يهجرهم إلى جزيرة على ضفاف نهر السنغال بقصد الانقطاع لله والسياحة، مستصحباً يحيى بن إبراهيم وسبعة من رجال جدالة[٣٤].. غير أن البربر الذين أعرضوا عنه لعنفه قد شعروا بوخزة الضمير فجاءوا إليه يلتمسون منه العفو مبدين استعدادهم التام لتلقي تعاليمه الدينية وتنفيذ أوامره، ومن ثَمّ اجتمع حول عبد الله بن ياسين في رباطه الذي اتخذه في تلك الجزيرة زهاء ألف شخص سماهم المرابطين.[٣٥] وبعد أن اكتمل له هذا العدد الضخم من الرجال الأقوياء بإيمانهم قال لهم عبد الله بن ياسين: "إن ألفاً لن تغلب عن قلة وقد تعين علينا القيام بالحق ودعوة الناس إليه وحمل الكافة عليه فاخرجوا بنا لذلك" فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة حتى أنابوا إلى الحق.. وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين وسماهم المرابطين.[٣٦]

ولعل أهم ما قام به المرابطون خدمة للإسلام في السودان الغربي هو هجومهم على مدينة أودغست التي كانت "غانة" قد استردتها من الملثمين . فقد استطاع المرابطون أن ينتصروا على "غانة" بعد معركة استبسل فيها الفريقان واستشهد فيها قائد المرابطين "يحيى بن عمر" وانتهت باستيلاء المرابطين على "أودغست" وكان ذلك

---

٣٣ **العبر**، ج٦، ص٣٧٤.

٣٤ الوزير الغرناطي، لسان الدين بن الخطيب، **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط** (طبعة دار الكتاب)، ص٢٢٧-٢٢٨.

٣٥ عبد الرحمن زكي، **تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية** (المؤسسة العربية الحديثة)، ص٣٢.

٣٦ **العبر**، ج٦، ص٣١٨.

سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٢٦م، وقد علل بعض المؤرخين هزيمة غانة بأن ملك التكرور الذي شرح الله صدره للإسلام قد حالف المرابطين، وخاض غمار الحرب إلى جانبهم.[٣٧]

أما "غانة" فمن المعروف أنها كانت أكبر إمبراطورية إفريقية قامت بغربي إفريقية، وكان أول سلاطينها هو "تيمغ" وأن سلطة غانة قامت قبل البعثة المحمدية بزمن طويل، تملّك في أثنائه اثنان وعشرون ملكاً، ثم تملّك بعدها اثنان وعشرون آخرون.[٣٨]

وكان حكامها الأوائل بيضانا في الأصل[٣٩]، وإن كانت الأصول التي يرجعون إليها لا زالت لغزاً أعيا الباحثين حله ولا يزالون مختلفين.

واشتهرت هذه الإمبراطورية بعظمة قوتها العسكرية والاقتصادية، وبرفاهية ملوكها وثرائهم وبذخهم.

على أن دولة ملوكها البيض سقطت في نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، حيث قامت أسرة "السوننك" بثورة ضدها وتأسست دولتهم على أنقاضها.

وفي زوال دولة الحكام البيض يقول أحد المؤرخين:

"ثم أفنى الله ملكهم وسلط أراذلهم على كبرائهم .. وقتلوا جميع أولاد ملوكهم حتى أنهم بقروا بطون نسائهم، وأخرجوا الأجنة وقتلوهم".[٤٠]

وبعد أن تبدد شمل الحكام البيض اتجهت بقية فلولهم مع أنصارهم إلى بلاد "التكرور"، فاختلطوا هناك بالتكاررة، فلم يعودوا بيضاً كما كانوا، بل أصبحوا أشبه بالزنوج منهم بالبيض.

ويروى أنهم نجحوا في التحكم السياسي في منطقة "تكرور" فظلوا هناك أصحاب النفوذ حتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، عندما ثارت ثائرة "التكاررة" فسحبوا بساط الحكم من تحتهم وطردوا هؤلاء المغتصبين الدخلاء.

ويذكر أن هؤلاء البيض هم الذين اشتهروا فيما بعد باسم "الفلانيين" . وقد حكم خلفهم من الأسرة السوننكية إمبراطورية "غانة" حتى مطلع القرن السابع الهجري /

---

٣٧ راجع: **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٢٥.

٣٨ راجع: **تاريخ الفتاش**، تحقيق هوداس وبونوا (باريس: ١٩٦٤م)، ص٤١.

٣٩ السعدي، **تاريخ السودان** (باريس: نشر هوداس، ١٨٩٨م)، ص٩.

٤٠ **تاريخ الفتاش**، ص٤٢.

الثالث عشر الميلادي، باستثناء الفترة التي استولى خلالها المرابطون على عاصمة "غانة" من عام ٤٩٧-٤٩٩هـ/ ١٠٧٦-١٠٧٨م. وفي عهد هذه الأسرة بلغت الإمبراطورية أوج قمتها وذروة مجدها وازدهرت اقتصاديّاً وعسكرياً.٤١

وقد اشتملت هذه الإمبراطورية على منطقة واسعة من الحدود المتاخمة لجنوبي الصحراء الكبرى شمالاً وامتدت جنوباً إلى مناجم الذهب في "بمبوك" ومن نهر النيجر في الشرق إلى المحيط الأطلنطي غرباً.

هذه المنطقة تشكل حالياً جزءاً من جمهورية موريتانيا، وكلا من جمهوريتى السنغال ومالي.٤٢

وقد دان لهذه الإمبراطورية بالولاء عدد كبير من ملوك السودان الغربي إبّان عزها وقوة سلطانها، ولا نبلغ حد الشطط إذا قلنا إن غالبية ملوك هذه المنطقة كانوا يدينون لها بالولاء التام، ويؤيد ذلك قول ابن خلدون: "كانوا أعظم أمة وأضخم ملكاً".٤٣

وعلى الرغم من أن المعارك العديدة التي خاضتها "غانة" مع دولة صنهاجة اللثام ودولة المرابطين إلاّ أن هاتين الدولتين لم تستطيعا أن تحملا ملوك "غانة" على الإسلام عنوة . والسبب في ذلك يرجع إلى أنه لم تقدر أية واحدة منهما على سحق قوة "غانة" العسكرية والاستيلاء على جميع أراضيها، وقد رأينا فيما سلف عن الدولتين الصنهاجية والمرابطية كيف أن كل واحدة منهما لم تزد على الاستيلاء على مدينة "أودغست" عاصمة "غانة" وكيف أن "غانة" لا تلبث أن تستردها وإن كانت الدلائل تشير إلى أن "غانة" لم تستطع أن تسترد عاصمتها الحيوية بعد استيلاء المرابطين عليها عام ٤٨٨هـ/ ١٠٦٧م.

وها هو ذا البكري يصف غانة وملوكها في العصر الذهبي، فيقول:

"إن اسم ملك "غانة" في سنة ٤٦٠هـ/١٠٣٩م "تنكامينين" الذي ولى سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٣٤، وكان اسم الملك قبله " بسي " الذي ولى وهو ابن خمس وثمانين سنة، وكان محمود السيرة محباً للعدل مرشداً للمسلمين".٤٤

---

٤١ **إمبراطورية غانا الإسلامية**، ص٢٧.

42 P. B. Clarke, *West Africa and Islam*, p. 37.

٤٣ **العبر**، ج٦، ص١٤٩.

٤٤ **المغرب**، ص١٧٥.

أما عن عاصمتها، وهي مدينة "أوكار" التي تحول إليها الملك بعد سقوط "أودغست" فيقول فيها: ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينها متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط".[٤٥]

وعلى الرغم من وثنية الملك إلاّ أنه كان يحترم المسلمين ويكرمهم ويتخذ منهم بعض خاصة، وآية ذلك أنه ابتنى مسجداً في مدينته يُصلّى فيه من يفد عليه من المسلمين، يقول البكري:

"وفي مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس الحكم".

وفي تصوير البكري للحياة الاجتماعية ما لا يدع مجالاً للشك في أن الإسلام قد انتشر في ربوع الإمبراطورية على الرغم من تمسك الملك نفسه بالوثنية. وليس أدل على ذلك من كون "تراجمة الملك من المسلمين وكذا صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه".

ويصور البكري الميزة التي كان يتمتع بها المسلمون تحت مملكته دون غيرهم. وتلك الميزة في التقاليد المرعية في السلام على الملك فيقول: "فإذا دنا أهل دينه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم له، وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيق باليدين".[٤٦]

وهنا يجدر بنا أن نردَّ على المؤرخ الغربي زعمه الخاطئ بأن ملوك "غانة" قد حملوا على الإسلام عنوة عند استيلاء المرابطين على "أودغست".[٤٧]

وهو زعم يفتقر إلى دليل ويستند إلى أساس واهٍ.. إذ أنه لو كان خروج "أودغست" من أيديهم يحملهم على اعتناق الإسلام لاعتنقوه من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حين استولى الزعيم اللمتوني "تبولتان بن تبكلان" على المدينة للمرة الأولى، ولكنهم لم يسلموا بل حولوا عاصمتهم إلى "أوكار" التي تقع على مسافة خمسة عشر يوماً في الجنوب، فإذا كان المرابطون لم يزيدوا على الاستيلاء على "أودغست" فليس هنالك ما يحمل ملوك "غانة" على اعتناق الإسلام لأنهم لم يفقدوا إلاّ جزءاً صغيراً من مملكتهم..

---

٤٥ المصدر نفسه.

٤٦ يراجع: **كتاب المغرب**، ص١٦.

47 Hoben: *The Mohammad Emirates*, p. 29.

وإن كان حيويّاً جداً من الناحية الاقتصادية للدولة.[٤٨] ومن الصعوبة بمكان تحديد الوقت الذي أسلم فيه ملوك "غانة" وذلك لعدم تحديده في المراجع التي بأيدينا.

فالزهري الذي كان كتابه بعد كتاب البكري يذكر أن ملوك "غانة" كانوا مسلمين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.[٤٩]

والإدريسي الذي كتب بعد أن أسلموا تحدث عن كونهم مسلمين فقط و لم يشر إلى الوقت الذي أسلموا فيه.[٥٠]

وقد بدأ الضعف يسرى في أواصر مملكة "غانة" منذ هزيمتها على أيدى المرابطين ومنذ انفلت من يدها زمام مدينة "أودغست" ذات الحيوية الاقتصادية والتي تمر بها صادرات وواردات السودان الغربي من ذهب وقطن وجلود وصمغ وعاج وعسل وذرة إلى أقطار شمالي إفريقية وبفقدان هذه المدينة فقدت "غانة" أكبر مورد من مواردها .. وبتضاؤل اقتصاديات الدولة أخذ الضعف يدب في عظامها شيئاً فشيئاً حتى انتهى بها الحال إلى سقوطها عام ٦٦١هـ/ ١٢٤٠م على يد ملك صوصو الذي أغار عليها عدة مرات وأخيرا تم له الاستيلاء على العاصمة "أوكار".

ومع أن هذا الملك لم يستطع أن ينشئ مملكة كبرى بتحطيم مملكة "غانة" فإنه مهد الطريق لقيام دولة "مالي" التي قامت بدور بارز في نشر الإسلام في السودان.[٥١]

وهنا يتحتم علينا أن نؤكد حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل، وهي أن أهمية هذه المملكة تتركز في أمرين اثنين ساعدا على انتشار الإسلام في كثير من بلاد إفريقية الغربية وهما:

أولاً: عدم صد هذه الممكلة رعاياها عن اعتناق الإسلام وترك الحرية الكاملة لهم لممارسة شعائرهم الدينية ومنح المسلمين بعض الامتيازات التي لا يتمتع بها الوثنيون الذين هم على دين الملك.

ثانياً: ما يذهب إليه عدد كبير من المؤرخين من أن حكام هذه المملكة هم أصل الشعب الفولاني الذي قام بدور كبير في نشر الإسلام والثقافة العربيّة في كثير من بلاد إفريقية الغربية.[٥٢]

---

٤٨ **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٣٠.

٤٩ نقلاً عن كتاب: P. B. Clarke. *West Africa and Islam*, p. 18.

٥٠ الشريف الإدريسي، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس** (ليدن ١٨٩٤)، ص٦.

٥١ **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٣٢.

٥٢ المصدر نفسه.

أما (مالي) أو (ملّ) كما تسمى أحياناً، فهو الاسم الذي أطلق على المملكة التي أسسها قبائل (السوننك) أو (المالنك) في منحنى النيجر. وكانت قديماً تحت حكم أسرة (كيتا).

ويحيط الغموض تاريخ نشأتها لخلو المصادر المعتمدة في تاريخ السودان الغربي منه. وكانت ذات يوم جزءاً من إمبراطورية (غانة)، وإن كانت تتمتع باستقلال ذاتي.[٥٣]

وكان من بين ملوكها، ملك أسلم على يد شيخ طيب إثر محنة كادت تفني البلاد والعباد.. ولكنها انجلت بفضل دعاء هذا الشيخ المسلم.. ولنترك المجال للبكري كي يحدثنا عن هذا الحدث الجليل:

(عرف ملك "مالي" بالمسلماني لأن بلاده أجدبت عاماً بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها، وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرئ القرآن ويعلم السنة. فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك، فقال لهم:

أيها الملك، لو آمنت با لله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها، لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك. وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوأك.

فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته، وأقرأه من كتاب ا لله ما تيسر عليه. وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ثم أمهله إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهراً سابغا وألبسه ثوب قطن عنده، وبرزا إلى ربوة من الأرض، فقام يصلي والملك عن يمنيه يأتم به. فصليا من الليل ما شاء ا لله، والشيخ يدعو والملك يؤمّن، فما انفجر الصباح إلاّ وا لله قد أعمهم بالسقى. فأمر الملك بكسر الدكاكير (أي الأصنام) وأخرج السحرة من بلاده. وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكهم منذ ذلك الوقت بالمسلماني).[٥٤]

ومع أن البكري لم يذكر لنا اسم هذا الملك ولا اسم العالم المسلم الذي كان له الفضل بعد ا لله في إسلام الملك، إلاّ أن وجود داعية مسلم ينهض بأعباء الدعوة إلى ا لله ببلاد هذا الملك يؤكد لنا أن الإسلام لم يكن غريباً في (مالي) أثناء هذا الحدث.

ولكن القلقشندي يذكر اسم أول من أسلم من ملوك (مالي)، فيقول: (وكان

---

53 M. Hiskett. *The Development of Islam in West Africa*, p. 28.

٥٤ **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص١٧٨.

ملوك "مالي" قد دخلوا في الإسلام منذ زمن قديم وأول من أسلم منهم ملك اسمه "برمندانه" وحج بعد إسلامه فاقتفى به في الحج من جاء بعده من الملوك).٥٥

أما المقريزي فيقول: (ويقال أن أول من أسلم منهم ملك اسمه "سرمندانه" ويقال "برمندانه").٥٦

وتميز ابن خلدون بالدقة القصوى عندما تحدث عن إسلام أهل "مالي" وملوكها فقال: (..ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين وحج جماعة من ملوكهم وأول من حج منهم " برمندار" وسمعت في ضبطه "برمندانه").٥٧

إذ لايعني بالضرورة أن يكون أول من حج من ملوكها أول من أسلم منهم . وخاصة أن هناك رواية شفوية مؤداها أن مؤسس أسرة الترورين في حكم "مالي" واسمه (منسا نوفن تراورا) قد اعتنق الإسلام.. ولربما كان هذا الملك أو غيره ممن سبقه أو ممن جاء بعده هو المعنى في عبارة البكري.٥٨

ومهما يكن من أمر، فإن الإسلام في هذه المملكة قديم قدم تاريخ دخوله في السودان الغربي. وتعد مملكة (مالي) أقوى وأغنى الممالك السودانية التي ظهرت في السودان الغربي، ويميزها من غيرها ذلك الدور الرائد الذي نهضت به من أجل توحيد القبائل الزنجية داخل ولايات، وكذا الدور البارز الذي اضطلعت به من أجل نشر الإسلام والدعوة له في جميع بلاد المنطقة.٥٩.

هذا وقد مرت هذه المملكة بمراحل متعددة بين مد وجزر ولكن تاريخها الذهبي يبدأ بتاريخ مؤسسها الحقيقي (سندياتا) أو (ماري جاطه) سنة ٦٥١-٦٧٦هـ/ ١٢٣٠-١٢٥٥م. وممن جاء بعد هذا الملك (منسا موسى) ويُعدّ موسى أعظم ملوكها،وفي عهده بلغت المملكة أوج مجدها وعزها وامتدت حدودها من بلاد (التكرور) غرباً، إلى (دندي) شرقاً ومن (ولاته) شمالاً، إلى مرتفعات (فوتا جالون) جنوباً، و(ولاته) أو (أيولاتن) هو الاسم الذي أصبح يطلق على ما كان يعرف (بغانة).٦٠

---

٥٥ صبح الأعشى، ج٥، ص١٩٣.

٥٦ المقريزي، **الذهب المسبوك** (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)، ص١١٠.

٥٧ **العبر**، ج٦، ص٤١٣.

٥٨ راجع: **دولة (مالي)**، ص٥٢.

٥٩ دولة "مالي"، ص٢٥، و *The Development of Islam in West Africa*, p. 29.

٦٠ **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٣٥.

وكان أسلاف منسا موسى يحجون البيت الحرام كل عام ولكن زيارة منسا موسى للأراضي المقدسة سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٢٤م كانت فريدة من نوعها من حيث الأبهة..

وكتب التاريخ مليئة بذكر أحداث هذه الرحلة التي كانت من نتائجها أن انخفض سعر الذهب في أسواق القاهرة بسبب إغراقها بذهب السودان. ولسبب كثرة الذهب في أيدي الناس. ولم يرتفع سعر الذهب بعد ذلك لمدة سنوات طويلة.[٦١]

ومن خلال هذه الرحلة اشترى السلطان موسى كُتُباً عديدة في الفقه على مذهب الإمام مالك في مصر واستصحب معه كثيراً من العلماء والفقهاء إلى بلاده ومن ضمنهم المهندس الأندلسي الشاعر أبو اسحاق الساحلي.[٦٢]

وقد شيّد له المهندس المذكور عمائر ومساجد أضفت على بلاده طابعاً إسلامياً متميزاً في مجال فن العمارة.

ومن خلف هذا الملك (منسا سليمان) الذي ولى الحكم لمدة أربع وعشرين سنة، وفي عهده زار ابن بطوطة مملكة (مالي).

وقد بنى (منسا سليمان) المساجد والمدارس وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك.[٦٣]

فيقول ابن بطوطة: "فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر إليها ولا المقيم فيها سارقاً أو غاصباً".[٦٤]

وعن محافظتهم على الصلوات وملازمتهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإن كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادة، فيبسطها له بموضع يستحقه حتى يذهب إلى المسجد.. ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا يفك عنهم حتى يحفظوه.[٦٥]

---

٦١ **دولة مالي**، ص٨٤.

٦٢ **العبر**، ج٦، ص٤١٥.

٦٣ **تاريخ الدولة السودانية بأفريقية العربية**، ص١١٣.

٦٤ **رحلة ابن بطوطة** (طبعة دار صادر ودار بيروت)، ص٦٩٠.

٦٥ المصدر السابق ، ج٢، ص٢٠١.

والجدير بالذكر أن دولة (مالي) لم تكتف باعتناق الإسلام والحرص على مظاهره وعلومه فحسب، وإنما أخذت تدعو له بين الوثنيين فانتشر الإسلام بينهم وتُعدُّ هذه المرحلة أهم مراحل نشر الإسلام في إفريقية جنوبي الصحراء، حيث اقترنت جميع فتوحاتها الحربية بالدعوة الإسلامية وإلى ذلك أشار العمري بقوله:

"وملك (مالي) في جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان".٦٦

وتميزت الدعوة الإسلامية في (مالي) باتجاهين:

الأول: انتشار الدعوة في الإمبراطورية نفسها، ويتضح ذلك في الوجود الإسلامي المتمثل في الدعاة والعلماء والفقهاء والتجار المسلمين والحكام، وإن كانت الأغلبية على الوثنية. وكان هذا الوجود قديماً كما أشار إليه القلقشندي وابن خلدون فيما سبق..

كما كان لهذا الوجود طابعه المميز الراقي والذي يجذب إليه أنظار خاصة القوم فضلاً عن عامتهم، ومن مظاهر هذا الوجود امتزاج الشعب بالمصاهرة والاختلاط وذوبانه في المجتمع، مع تأثرهم بالسلوك الإسلامي الممتاز مما كان له تأثيره المبكر وخاصة في الطبقة العليا مما اقتضى إسلام أول من أسلم من الملوك فيها على يد داعية من هؤلاء فيما رواه البكري آنفاً.

ومن مظاهر هذا الانتشار عناية الملوك بابتناء المساجد في أرجاء الإمبراطورية ومبالغتهم في عمارتها مما أعطى للإمبراطورية طابعاً حضاريّاً وثقافيّاً.

وقد قيل إن السلطان (منسا موسى) كان يبني مسجداً في كل مدينة تدركه صلاة الجمعة فيها.٦٧

ومن مظاهر الانتشار هذه كثرة المدارس في (مالي) ملحقة بالمساجد ومستقلة عنها، وانتشرت بانتشارها لغة القرآن وعلومه وازداد الإقبال والاهتمام بحفظه ودراسته وقد ذكرنا سابقاً وصف ابن بطوطة لهذه الظاهرة.

أما الاتجاه **الثاني**، فقد تمثل في قيام (مالي) بنشر الدعوة الإسلاميّة فيما جاورها من الأمم الإفريقية السودانية بأسلوبين:

الأول: حركات جهاد الوثنيين حولها ممثلة في انتشار حاميات (مالي) العسكريّة بين ساحل المحيط الأطلسي غرباً إلى (كانو) في أرض الهوسا شرقاً وإلى قلب الأدغال في الجنوب.

---

٦٦ **دولة مالي**، نقلاً عن: **مسالك الأبصار**.

٦٧ **تاريخ السودان**، ص٧.

وتوغلت شمالاً في الصحراء وأصبحت (مالي) أقوى دولة في السودان الغربي لها بأس شديد وسيادة ونظم ورسالة هي رسالة الإسلام تنشرها، وإلى ذلك يشير العمري بقوله:

(ملك " مالي " في جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان).[٦٨]

وتمثل الأسلوب الثاني في الحركة السليمة بإيفاد العلماء والدعاة للدعوة إلى الله. ومن تلك الوفود الوفد الذي وصل إلى (كانو) وكان يضم أربعين رجلاً من (الماندنجو) بقصد الدعوة إلى الله وذلك في فترة منتصف القرن الثامن الهجري ونهايته.[٦٩]

وبدأت أمور الدولة تضطرب وانتهت (مالي) كإمبراطورية إسلامية ـــ سنة الله في خلقه ـ وكان العامل القوي في التعجيل بتقويضها ووراثتها دولة (صنغاي) التي كانت تحت حكمها واستقلت عنها وحاربتها فملكتها ووسعت رقعتها.[٧٠]

وعلى الرغم من سقوط مملكة (مالي) فإن جهود أفراد شعبها في نشر الإسلام لم تتعثر و لم تتأثر بانهيار الدولة.

وفي عهد ملك (كانو) يعقوب الذي تولى الملك سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٥٢م إلى سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٦٢م تقريباً، وصل وفد آخر من (مالي) إلى كانو ولكن هذا الوفد كان يختلف عن الأول، حيث كان يتألف من (الفلانيين).

وقد أحضروا معهم كتب التوحيد واللغة العربية، وكانت الكتب الدينية المعروفة قبل ذلك غير القرآن هي كتب الفقه والحديث .

و لم يقم هذا الوفد في (كانو) كسابقه وإنما واصل سفره شرقاً إلى (برنو) تاركاً وراءه أفراداً منه في أرض الهوسا.[٧١]

ثم قامت مملكة (صنغاي) على أنقاض (مالي) بعد أن كانت خاضعة لها. وكان أول من أسلم من ملوكها (زاكس) وذلك في سنة (٤٠٠هـ) / القرن الحادي عشر الميلادي، ويقال له (مسلم دم) ومعناه الذي أسلم طوعاً.[٧٢]

---

٦٨ حسن عيسى عبد الظاهر، **الدعوة الإسلامية في غربي إفريقية وقيام دولة الفلاني** (طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، ص١٠٤.

٦٩ لمزيد من التفصيل راجع: **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٣٩.

٧٠ **الدعوة الإسلامية في غربي إفريقية وقيام دولة الفلاني**، ص١١١.

٧١ **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٣٩ و *The Kano Chronicles in Palmer Sudanese Memoirs*, Vo. III, p.104-5.

٧٢ **تاريخ السودان**.

وقد مرت هذه المملكة بمراحل عديدة بين مد وجزر إلى أن حكمها (الحاج أسكيا محمد) وكان عهده مفترق الطريق في تاريخ (صنغاي) فقد اتجه بها وجهة أخرى أقامت لها وجهها الإسلامي، وكان يدين بعقائد المذهب السني.

وتقلد حكم البلاد واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء ونظم الجيش واستغل ثروة سلفه في النهوض بالشؤون الإسلامية، واستردت (تمبكتو) في عهده مكانتها بوصفها مركزاً للدراسات الإسلامية.٧٣

وكان هذا السلطان قد انتزع الملك من آل (سن على) بعد أن كان قائدا من قواد هذه الأسرة المالكة.

غير أنه لم يكن في ذلك بالخارج الباغي أو الطامع في السلطة، وإنما تحسس طريقه إلى ذلك في ضوء كلمة الإسلام وحالة المجتمع في عصره وما كان عليه (سن علی) من البغي والطغيان.

وشهادة ذلك تلك الأسئلة التي وجهها إلى الإمام (المغيلي التلمساني) يطلب فيها حكم الإسلام في كثير من القضايا ومن بينها قضية انحراف المجتمع وحكامه.٧٤

وكان له جهاد كبير في نشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه (الماندنجو) و(الغلاني) في الغرب، والطوارق البربر في الشمال، والهوسا في الجنوب وكذا بلاد (الموشى) الوثنية.٧٥

ثم قام برحلة إلى الحج سنة ٩١٦هـ/ ١٤٩٥م فاقت ما عرف عن (منسا موسى) في الأبهة والكرم، التقى خلالها بالخليفة العباسي فطلب منه أن يجعله نائباً عنه في (صنغاي)، فأجابه الخليفة إلى ذلك وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة.

كما التقى في رحلته تلك بكثير من العلماء الصالحين، منهم الإمام جلال الدين السيوطي. ومما يسجل له، أنه كان أول من عين القضاة للفصل بين الناس وفق أحكام الشريعة الإسلامية.

وجاء (الأساكي) بعده يشجعون العلم، وكان لبعضهم مكتبات كبرى يقتني لها دائماً المخطوطات والكتب الجديدة التي تصل إلى السودان من مصر والمغرب.

---

٧٣ **الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى**، ص٦٧-٧٠.

٧٤ **الدعوة الإسلامية في غربي إفريقية وقيام دولة الفلاني**، ص١١٢-١١٣.

٧٥ المصدر السابق.

وشاعت هناك كتب الإمام السيوطي، وكان لاتصاله برجال الدين البارزين في القاهرة كجلال الدين السيوطي وغيره وما قدموه له من نصائح وإرشادات دور بارز في تطوير التعليم في السودان الغربي.[٧٦]

ثم كانت نهاية هذه المملكة الإسلامية العظمى على يد الجيش المغربي الغازي الذي أرسله الملك (أحمد المنصور الذهبي) أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، فقضى عليها، وبذهابها لم تبق بعدها قوة ذات خطر في بلاد السودان الغربي.

واستقبلت المنطقة بقدوم الغزاة عهداً جديداً من حكم القواد الغزاة والباشوات، ظل حوالي قرنين أصيبت فيهما البلاد بالفتك والانحلال والخمول، فكثرت الحروب الأهلية وتحطمت الإمارات الإسلامية إلاّ ما كان من نشاط (الباجرمي) و (الوادي) في حوض تشاد في منتصف القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

ووجدت الدعوة الإسلامية نفسها أمام حالات من الاختناق والتعويق ممثلة في انحرافات كثيرة من حملة الإسلام لبعدهم عن مفاهيمه الدقيقة وحقائقه الوضيئة، وانفصام سلوكهم عن تعاليمه السمحة، ولم يجد من يقوم بتصحيح مسيرته لدى الناس ومد رواقه على الحياة وإشاعة نوره في المجتمع..

وهكذا ترك المغاربة مرارة وحسرة في صدور أهل السودان الغربي مما كان له أسوأ الأثر خلال الأعوام التالية.. وبذلك أسدل الستار على أقسى ما تعرض له السودان الغربي من الغزو الذي جاء من الشمال.

ثم استعد لغزو أجنبي آخر، قدم هذه المرة من سواحل المحيط الأطلسي ومن الجنوب.. هو الغزو الأوروبي الذي كانت فيه الضربة القاضية على تقاليد هذه الشعوب وقيمها وعلى ثقافتهم العربية الإسلامية.[٧٧]

---

٧٦ **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٤٥.

٧٧ لمزيد من التفصيل يراجع: عبد الرحمن زكي، **تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقية** (دار الاتحاد العربي)، ص٦١-٧٣.

وبعد حين من الزمان، قامت عدة حركات إصلاحية لنشر الإسلام وثقافته بين الوثنيين وتصحيح مفاهيمه لدى المسلمين المنحرفين.. وقامت هذه الحركات بالجهاد في سبيل ذلك بالسيف واللسان والقلم.

ومن أكبر هذه الحركات، حركة الشيخ عثمان بن فودي في ممالك الهوسا الوثنية في نيجيريا.

وقد انتصر عليهم وأقام دولة إسلامية قوامها نشر العدل بين الناس وإعادتهم إلى العقيدة الصحيحة النابعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وكان لهذه الحركة الجهادية أثر كبير في تقدم أحوال الإسلام والمسلمين ليس في نيجيريا فحسب، وبل في غربي إفريقية كلها.

كما كانت هذه الحركة إعلاءً للثقافة العربية الإسلامية في تلك البلاد، إذ لم تكن دعوة إلى الدين منحصرة في التصوف وإنما كانت مؤسسة على حركة علمية وعلى دراسة أصلية ذات أهداف مرسومة غير مرتجلة.

وآية ذلك ما صدر من المؤلفات العلميّة القيمة في تلك الفترة المبكرة من حركته وأولها مؤلفات الزعيم المجدد (عثمان بن فودي) نفسه، فقد ألف ما يربو عن ثلاثين كتاباً وبحثاً في الفقه والسياسة والجهاد.

وكان شقيقه (عبد الله بن فودي) فقيهاً، مؤرخاً، ولغويّاً، نحويّاً، وشاعراً أديبّاً، له في كل هذه الميادين كان طريقاً رائعاً.. عرف من مؤلفاته أكثر من ثلاثة وعشرين كتاباً بعضها لا يزال مخطوطاً وبعضها ترجم ونشر في اللغات الأجنبية.. وكذا ابن الزعيم، (محمد بلوبن عثمان)، فقد كان أديباً وشاعراً ومؤلفاً بارعاً، له أكثر من ستة مؤلفات بين مخطوط ومطبوع.

وإلى جانب هؤلاء علماء آخرون حملوا رسالة الفكر وشعلة الحضارة الإسلامية.[٧٨]

وقد أدرك علماء الغرب من بريطانيين وفرنسيين منذ أن وطئ الاستعمار الأوروبي غربي إفريقية قيمة وأهمية المخطوطات العربية التي ألفها علماء السودان الغربي فنقلوا

٧٨ يراجع: **الثقافة العربية في نيجيريا**، ص٢٤٦-٢٩٧.

أكثرها إلى مكتبات بلادهم. ودأبوا على بحثها ثم ترجمتها ونشرها بواسطة المعاهد العلميّة عندهم.

ومع ذلك فلا تزال هناك إلى اليوم مئات المخطوطات العربية في ميادين العلوم والمعارف المختلفة في مدن نيجيريا الشمالية، وفي السنغال وبريطانيا وفرنسا لم تصل إليها أيدي المحققين، ومن هنا ندعو الباحثين المسلمين إلى تكاتف الجهود ــ في العالم الإسلامي عامّة والعالم العربي على وجه الخصوص ـ لتحقيق هذا التراث الإسلامي السوداني المهم ونشره لخدمة الدين والعلم. وهو تراث يمثل عظمة الإسلام وتأثيره الإيجابي الرائع فيمن اعتنقوه من الشعوب غير العربية، كما يمثل إسهامات علماء السودان الغربي في إثراء مكتبة التراث العربي الإسلامي.. وهي جهود لا تقل عن مستوى جهود علماء المشرق والمغرب العربيين في تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي.. ولا شك أن الوقت قد حان للقيام بهذه الرسالة الجليلة، والله مع العاملين.